

ابن باديس

وفلسفته فى الإصلاح والتربية

أ.د. عبد الفتاح الفاوى*

إلى حد بعيد ، يجد الباحث أن ظهور الحركات الإصلاحية السياسية منها والدينية قد ارتبطت فى العالم الإسلامى بشكل عام ، وفى الوطن العربى بوجه خاص ، بوجود استعمارى مباشر أو غير مباشر ، ويجد أن حدة نشاط هذه الحركات تشتد بقدر توغل الوجود الاستعمارى وتخف عند انحسار هيئته على مقومات الأمة والوطن.

ومن هنا فإننا نجد أن التوغل الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر وبسط هيئته الضاغطة على مقومات الشعب العربى هناك - قد أدبأ إلى بروز استجابة وطنية كانت بنفس مستوى التحدى . وكان من أهم أعلام تلك الاستجابة وأبرز رجالات الإصلاح

* أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

فى الجزائر هو الشيخ عبد الحميد بن باديس .

ابن باديس

فى أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه ، ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس عام ١٨٨٩ ، وكان والده ذا وجهة سياسية ، مقربا من الفرنسيين ، وكان عضوا فى المجلس الأعلى والمجلس العام. وكانت أسرته تنتمى إلى الطريقة القادرية.

حفظ القرآن ، وسافر إلى تونس لمتابعة تعليمه العالى فى جامع الزيتونة ، ونال عام ١٩١٢ شهادة التطويع. وكشأن الخريجين فى ذلك الوقت كان عليه أن يعلم فى الزيتونة عاما واحدا.(١)

وفى عام ١٩١٣ عاد إلى قسنطينية وشرع لتوه فى العمل التربوى ولكن طريقته فى التدريس لم ترق لبعض خصومه فضيقوا عليه مما اضطره أن يعاود السفر إلى تونس فسافر عشية الحرب العالمية الأولى (٢) ، حيث تابع تحصيله العلمى فى الزيتونة لبعض الوقت ثم انتقل إلى الحجاز وتعرف هناك على الشيخ البشير الإبراهيمى وكانا يقضيان وقتهما يبحثان ويدرسان أوضاع الجزائر المتردية من جميع النواحي ويفكران فى وسائل العمل من أجل النهوض بها(٣) .

ويصف الإبراهيمى اجتماعاته وأسماؤه المتواصلة مع ابن باديس بأنها : كانت كلها تدبيرا للوسائل التى تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضة الشاملة

(١) عمار الطالبي : ابن باديس حياته وأثره ٧٢/١ دار مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر ١٩٨٩ .

(٢) يرى بعضهم أن خروج ابن باديس من الجزائر عشية الحرب كان بدافع انقاء التجنيد الاجبارى الذى

كان قضية تشغل رأى العام فى ذلك الوقت .

انظر : سعد على أبو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية ٢ / ٤٣٥ دار الآداب بيروت ١٩٥٩ .

(٣) ابن باديس ٨٠/١ ، ٨١ مرجع سابق.

التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام ١٩١٣ هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في عام ١٩٣١ (١) .

ومن الحجاز انتقل ابن باديس إلى دمشق ولبنان ثم سافر إلى مصر حيث اتصل بالشيخ بخيت زميل الشيخ محمد عبده وحامل أفكاره والظاهر أنه أخذ عنه لفترة قصيرة نال على إثرها إجازة منه ويبدو أن هذا الاتصال لم يك مصادفة وإنما كان بدافع الرغبة في الإطلاع عن كتب على أفكار محمد عبده الإصلاحية .

وغير خفى أن رحلة ابن باديس إلى المشرق قد أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية وفيها خبر أحوال الناس مما وسع أفقه وبصره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة أو الصفوة المبدعة (٢) .

وثمة حادثان تركنا طابعا مميزا على حياة ابن باديس هما : الحركة الوطنية التونسية التي كانت قبل الحرب ، وثورة العرب ضد الأتراك ١٩١٦ . وكان ابن باديس خارج الجزائر وقت تشوب تلك الأحداث . وعندما عاد إلى قسنطينة للمرة الثانية استأنف فيها نشاطه الإصلاحى والتربوى وكانت له في ذينك الميدانين فلسفته الخاصة ومنهجه المحدد مما سنقف عليه فيما يلى :

فلسفته في الإصلاح

اقتفى ابن باديس في فلسفته الإصلاحية أثر السلف ودعا بدعوتهم في العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى : الكتاب والسنة لاستلزامهما في مسيرة المستقبل . فالقرآن

(١) البشير الإبراهيمي : مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٢١ ص ١٤١ القاهرة ١٩٦٤ .

(٢) الحركة الوطنية ٢ / ٤٣٦ مرجع سابق .

الكريم الذى كون رجال السلف لا يكثر عليه - والكلام لابن باديس - أن يكون رجالا فى الخلف لو أحسن فهمه وتديره وحملت الأنفس على منهاجه^(١) .

وإصلاح التعليم هو الأساس الأول لحركة الإصلاح فى نظره . فلن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب ، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله .. فإذا أردنا اصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم . فالتعليم هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره^(٢) .

وابن باديس يذهب فى ذلك مذهب الشيخ محمد عبده الذى أن يرى أن إصلاح النفوس يتأتى عن طريق اصلاح برامج التعليم^(٣) وإلى ذلك أيضا ذهب الكثير من مصلحي العصر الحديث .

ولكى يؤدى التعليم دوره الإصلاحى يجب أن يشتمل على عدة أهداف من أهمها فى نظر ابن باديس:

أ- اصلاح الفرد فكل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال فى حياتنا الفردية والاجتماعية^(٤) .

ب- توفية مطالب العصر وقد كانت أمنية ابن باديس أن يحاكى الشعب العربى فى تقدمه شعوب العالم الراقية والسبيل فى نظره للوصول إلى هذا الهدف هو الإصلاح التربوى والدينى والاجتماعى . والفرد هو الأداة التى يجب صقلها لكى نصل إلى هذه

(١) انظر : البصائر : السنة الأولى : المجلد ١٦ إبريل ١٩٣٦ .

(٢) الشهاب ص ٤٨٧ عدد ١٠ أكتوبر ١٩٤٣ .

(٣) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ٣٣١ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥ .

(٤) السابق ، نفس الصفحة .

الغاية .، لذلك فقد خاطب الفرد مرشدا إياه إلى السبيل الأقوم للرقى فكريا وماديا فقال: «حافظ على مالك فهو قوام أعمالك فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته واطرق كل باب خيرى لبذله .. حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصرى الذى أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المباشرة والتقابل .. كن عصريا فى فكرك وفى عملك وفى تجارتك وفى صناعتك وفى فلاحتك وفى تمدنك وفى رقيق^(١) .

أما الأساس الثانى : من أسس الإصلاح عنده فهو المحافظة على الشخصية الجزائرية عربية إسلامية . فلم يكن يتصور مستقبلا آخر للجزائر إلا فى ظل عروبتها وإسلامها فهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية الثلاث أما الركن الثالث فهو الجزائر وعلى هذا الأساس كانت نشاطات ابن باديس موجهة للحفاظ على دعائم الشخصية الجزائرية التى تقوم على الركيزتين الأساسيتين : العروبة والإسلام .

ذلك أن الخطر الحقيقى الذى كان يهدد الجزائر لم يكن ناجما فقط عن الاحتلال العسكرى والسياسى بل كانت هناك المحاولات الهادفة للقضاء على اللغة القومية لهذه الشخصية وعلى تراثها الدينى والتاريخى ، وكان ابن باديس يريد تحديد هذه الشخصية وإثراءها حتى تتلاءم مع روح العصر . ومن أجل هذا شن حربا لاهوادة فيها على الجمود الفكرى وحاول تحديد الثقافة العربية الإسلامية فى الجزائر وانتقد كتب التفسير التى تشيع فيها الإسرائيليات وفسر القرآن على الطريقة السلفية مع عدم اغفال التطورات الفكرية والحضارية والعلمية المعاصرة . يقول عن تحديد الهوية الجزائرية : إن هذه الأمة الجزائرية : الإسلامية ليست هى فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت بل هى بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها

(١) الشهاب : عدد ٤٩ : السنة الثالثة أكتوبر .

وفى دينها (١) .

وفى حوار مع بعض الشبان المثقفين ثقافة غريبة قال لهم : عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنتشلوها مما هى فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتهم من خبرة محافظين على مقوماتها سائرين بها فى موكب المدنية الحقبة بين الأمم .. ولا يمنع هذا من أخذ العلم من كل أمة وبأى لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا (٢) .

والم تأمل فى منهج ابن باديس فى دعوته الإصلاحية يجد توافقا بين الدعوتين الوهاية والباديسية فى النواحي الدينية والخلقية حيث اهتمتا معا بتقوية العقيدة ومحاربة البدع ودعنا للرجوع بالدين إلى أصله السلفى ، إلا أنهما اختلفتا فى مواجهة الحياة العقلية والمدنية المعاصرة . فبينما لم تمس الدعوة الوهاية الحياة العقلية ولم تعمل على ترقيتها إلا فى دائرة التعليم الدينى ولم تنظر إلى مشاكل المدنية الحاضرة ومطالبها نجد الدعوة الباديسية تسير فى موكب المدنية وتدعو إلى أخذ العلم من كل أمة وبأى لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا (٣) .

وكان الأساس الثالث من أسس الإصلاح هو تكوين جيل . جديد فقد كان من أهداف ابن باديس فى حركته الإصلاحية تغيير الواقع المتخلف . والطريقة الناجحة لإحداث هذا التغيير فى رؤية تتمثل فى تكوين جيل جديد مزود بتربية عربية إسلامية أساسها القرآن يقول فى ذلك : «إنا نربى - والحمد لله - تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفى كل يوم وغايتنا أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفى سبيل تكوينهم تلتف جهودنا وجهودها» (٤) .

(١) تركى رايح : الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ص ٢٥٥ .

(٢) الشهاب : ص ٤٤٣ عدد ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

(٣) انظر زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ٢٠ .

(٤) مجلة الشهاب ص ٢١١ عدد ١٤ يولية ١٩٣٨ .

وكان ابن باديس غالبا ما يقرن القول بالعمل ومن هنا جاءت دعوته إلى إنشاء جمعية العلماء - التى ستعرف عليها لاحقا - وهذا ما دفع بعض المفكرين مثل مالك بن نبي^(١) . وجيت^(٢) ، إلى المقارنة فى مجال الدعوة المنظمة بين حركة الأفغانى ومحمد عبده من جهة وبين حركة ابن باديس من جهة أخرى . وكان من رأيهما أن الأفغانى ومحمد عبده لم يتفقا على إقامة جمعية منظمة تنهض للدعوة واكتفيا فقط بتأسيس جمعية العروة الوثقى السياسية السرية بينما نجحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى تكوين متخصصين بارعين أكثر مما عملت على تكوين دعاة مخلصين .

الأساس الرابع: الوحدة الوطنية. فكلنا يعرف أن الاستعمار الفرنسى حاول تقسيم الشعب الجزائرى إلى قسمين : عرب وبربر ، وأجرى الدراسات الفيزيولوجية على البربر وادعى بأنهم يشبهون فى تكوينهم شعوب الغاليين أسلاف الفرنسيين وحاول إعادتهم إلى أصلهم التاريخى عن طريق فصل مناطقهم عن المناطق الجزائرية الأخرى بسلسلة من الأنظمة والقوانين وشجع عمليات فرنستهم وتنصيرهم .

وقد تصدى ابن باديس لهذه المحاولة وغيرها من محاولات التمزيق^(٣) بوعى وإدراك وفى ذلك يقول : «إن أبناء العرب وأبناء مازيغ (البربر) قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشرة قرنا ثم بدأت تلك القرون تمزج ما بينهم فى الشدة والرخاء .. حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا . أمه الجزائر وأبوه الإسلام . وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم فى ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله .. فأى قوة بعد هذا - يقول عاقل - تستطيع أن تفرقهم لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم . يا عجبا لم يفترقوا وهم الأقوياء فكيف

(١) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامى ص ١٣٤ القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) أ جيت : الاتجاهات الحديث فى الإسلام مترجم ص ١٣٤ القاهرة ١٩٥٩ .

(٣) إذ حاولت فرنسا أيضا تقسيم البربر إلى وحدات هى : القبائل : الشادية - الطوارق ، الميزاب .

يفترقون وغيرهم القوى اكلا والله بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم^(١) .

الأساس الخامس : تحرير التفكير الإسلامى من البدع والخرافات . وقد سار ابن باديس فى ذلك فى نفس الخط الإصلاحى السلفى الذى سار فيه قبله محمد عبده وجمال الدين الأفغانى والذى كان قد أتى به محمد بن عبد الوهاب ومن قبله ابن تيمية فهؤلاء جميعا كانوا يهدفون من دعوتهم الإصلاحية فى الدين إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى : الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح .

وقد أدرك ابن باديس كما أدرك الأفغانى من قبل بأن العنصر الدينى الذى كان أساسا فى إصلاح هذه الأمة بل فى دفعها إلى المقدمة فى كثير من عصور التاريخ ولعدة قرون وفى فترات متفاوتة هو السبيل الرئيسى فى توحيد الهمم لإنقاذ الأمة ودفعها مرة جديدة فى طريق الحضارة ولكن بشرط أن يطهر الإسلام من الأوهام والخرافات التى لحقت به فى عصر التدهور^(٢) .

ولقد أثمرت جهود ابن باديس وصحبه فى الإصلاح وأصبح لا يخلو بيت من بيوت الجزائر من داع إلى الإصلاح وأصبحت البدع والضلالات تجد فى عامة الناس من يقاومها ويتنصر عليها .

هذا ومن أهم أعمال ابن باديس الإصلاحية دعوته إلى إنشاء جمعية لعلماء المسلمين إذ كان يؤمن بالعمل الجماعى للنظم ومازال يعمل حتى أسست الجمعية وبشرت نشاطها .

(١) البصائر: السنة الأولى : العدد ١٣/٣ يناير ١٩٣٦ .

(٢) انظر : تركى رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

جمعية العلماء المسلمين بالجزائر

كان ابن باديس يؤمن بالعمل الجماعى المنظم ويقرن الدعوة اللفظية بالعمل . يقول فى ذلك : «إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتأزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة فى العمل عن فكر وعزيمة»^(١) .

وقد شهد تأسيس هذه الجمعية اختلافا وجدلا من زعماء الإصلاح فى الجزائر فعلى الرغم من تأييد الجميع لها إلا أنهم اختلفوا حول نظامها وبرنامجه . التقوا على فكرة الجمعية ولم يلتقوا على نظام ولا فى جمعية وكان يتجادبهم رأيان يلتقيان فى الهدف ويختلفان فى الأسلوب .

الرأى الأول : تبناه البشير الإبراهيمى ويقوم على توجيه الجهود متضافرة إلى التعليم المشر وتكوين طائفة جديدة منسجمة التعليم مطبوعة بالطابع الإصلاحى علما وعملا مسلحة بالأدلة مدربة على أساليب الدعوة حتى إذا كثر سوادها وكان منها الخطيب ومنها الكاتب ومنها الشاعر ومنها الواعظ ومنها الراعى المتجول استخدمت فى الحملة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز^(٢) .

والرأى الثانى : تبناه عبد الحميد بن باديس وكان يقوم على مهاجمة المبطلين بشدة وإسماع العامة المغرورة صوت الحق فصيحاً غير مجمم لأن البدع والمنكرات التى يريد الإصلاح أن يكون حرباً عليها هى أمور قد طال عليها الأمد وشاب عليه الوالد وشب عليها الولد وهى بعد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقاً لهم

(١) عبد الحميد بن باديس تفسير ابن باديس ص ٤٢٨ جمع وترتيب محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين : دار الكتاب الجزائرى . الجزائر ١٩٦٤ .

(٢) البشير الإبراهيمى سجل مؤتمر جمعية العلماء ص ٤٣ ، عيون البصائر ٤٣ الجزائر ١٩٧١ .

وأنس بها العامة حتى اعتقدوها فروضا عليهم فلا مطمع إلى زوالها إلا بصيحة مخيفة
تزلزل أركانها ورجة عنيفة تصدع بنيانها .. وهناك يسهل العمل^(١) .

وقد تم الاتفاق فى النهاية على الأخذ برأى ابن باديس، الذى أصدر لهذا الغرض
جريدة المنتقد عام ١٩٢٥ فى قسنطينة^(٢) ، وجاء أسمها كما يظهر نقضا للمنهج الذى
كانت تربي الصوفية مريديها عليه : «اعتقد ولا تنتقد»^(٣) .

وفى نفس العام صدرت دعوة فى جريدة الشهاب - التى اعقبت المنتقد - إلى
المتعلمين المصلحين المشتتين فى الجزائر بأن يتجمعوا فى حزب دينى محض ، يكون
هدفه تنقية الدين من الخرافات والبدع والعودة إلى مصادره الأولى .. ثم قامت الجمعية
بعد ذلك وأدت رسالتها على خير وجه.

وقد حددت غاية هذه الجمعية فى المجالات الآتية :

١- محاربة الطرق الصوفية المنحرفة : إذ رأت أنها طرق فرقت المسلمين
وكانت سببا لضلالهم فى الدين والدنيا . فمقاومتها فى نظر الجمعية مقاومة لكل شر
والقضاء عليها قضاء على كل باطل ولا يتم فى الجزائر إصلاح فى أى فرع من فروع
الحياة مع وجود هذه الطرق ومع مالها من سلطان على الأرواح والأبدان وما فيها من
فساد للعقول وقتل للمواهب^(٤) .

٢- التعليم : وذلك بالتوسع فى دائرته وإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبى
للصغار وتنظيم دروس فى الوعظ والإرشاد والقضاء على الأساليب العتيقة العقيمة فيه .

(١) السابق ، نفس الصفحة.

(٢) تقع هذه المدينة فى شرقى الجزائر وسميت بذلك نسبة إلى الإمبراطور الرومانى قسطنطين الذى حكم
الجزائر وله فيها تمثال مشهور .

(٣) عمار الطالبي : ابن باديس ١ / ٨٢ .

(٤) انظر : سجل مؤتمر جمعية العلماء ٥٤ .

٣- البدع والمنكرات العامة: وغاية الجمعية فى هذا المجال محاربة البدع المرتبطة بالمساجد والجنائز والمقابر والحج والاستشفاء والندور ، والتي أصبحت تشوه هذه المظاهر المقدسة لدى المسلمين .

٤- الإلحاد: وكان الإلحاد قد حل على الجزائر عن طريق الثقافة الأوربية والتعليم اللادىنى أو التقليد الأعمى ، كما كان للخرافات أثر فى انتشاره، وذلك أن أبناء المتعلمين تعلموا أوربيا الجاهلين حقائق دينهم يحملون - كما يقول البشير الإبراهيمى - من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هى الدين ، فإذا تقدم منهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل فينكرونها حقا وعدلا وينكرون معها الدين ظلما وجهلا^(١) .

٥- التبشير : وكانت الجمعيات التبشيرية المسيحية قد انتشرت فى الجزائر وخاصة فى المناطق التى تكثر فيها المجاعات وقد أخذت الجمعية على عاتقها مقاومته بقدر المستطاع .

وهكذا جاءت جميعة العلماء علمية دينية تهذيبية تعمل على نشر التعليم وإصلاحه وتنقية الدين والرجوع به إلى أصله ثم تدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاربة الرذائل . والهدف السياسى من ذلك لا يخفى بين تلك الأهداف أو الغايات وإن كانت الجمعية قد أخذت فيه جانب الحذرحتى يتسنى لها البناء والاستمرار يقول ابن باديس «إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا فى أيام عسرها ويسرها ومع الأسف لم تر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية : الحرية والمساواة والإخاء ، من رفع مستوانا العلمى والأدبى . .. وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا فى إدارة شئون وطننا الجزائرى^(٢) .

(١) السابق ٦٤ .

(٢) المنتقد : العدد الأول ٢ يولية ١٩٢٥ .

ويقول أيضا إننا نحب الإنسانية ونعبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا نحب من يحب الإنسانية ويخدمها وينفض من يفضها ويظلمها (١) .

هذه هي أهم أهداف جمعية العلماء المسلمين وهي تمثل بالتالي أهم أبعاد الحركة الإصلاحية هناك.

والى جانب هذه الحركة الإصلاحية العامة اهتم ابن باديس بوجه خاص بالتربية وكانت له فيها فلسفة ومنهج .

فلسفته في التربية ومنهجه في إصلاحها

كان التعليم العربي السائد في الجزائر قبيل الحرب العالمية الأولى يتسم بمظهرين الأول : تعليم الكبار في المساجد وكان هذا النوع قاصرا على دروس الوعظ والإرشاد ويتولاه المدرسون من خريجي المدارس الإسلامية وبعض المتطوعين من رجال العلم (٢) .

والجدير بالذكر أن المساجد في الجزائر لم تكن كلها وفقا على أداء الصلاة وحدها بل كان الكثير منها مخصصا للعبادة والتعليم معا كما هو في الجامع الأخضر في قسنطينة الذي خصصه مؤسسه «حسين باي» عام ١١٥٦ للصلاة والتعليم (٣) .

أما المظهر الثاني : فيتمثل في تعليم الصغار في الكتاب وكان قاصرا على حفظ القرآن كله أن ما تيسر منه.

وعندما عاد ابن باديس من تونس عام ١٩١٣ اهتم بتعليم الجيلين في المسجد حيث كان يعلم الصغار مبادئ اللغة العربية والدين قبل دواهم في الكتاب وبعده ثم يلقي دروس الوعظ والإرشاد على الكبار واعتبر أن طريقته في التعليم الابتدائي كانت أول طريقة من نوعها لتعليم الصغار.

(١) السابق .

(٢) تركي رايح : الشيخ عبد الحميد بن باديس ٣٥٣ .

(٣) ابن باديس : جريدة المنتقد العدد الأول ٢ يولية ١٩٢٥ ص ١ .

ويدو أن التعليم الابتدائي الذي كان يقوم به ابن باديس في المسجد كان يغلب عليه طابع الكتاب التقليدي ثم تطور بعد ذلك إلى مدارس شبه عصرية وكانت تشرف على هذه المدارس جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي كان من أهم أهدافها تأسيس مكتب للتعليم والعمل على إرسال التلاميذ على نفقتها للدراسة في الكليات والمعاهد الكبرى.

وهناك ناحية في نشاط ابن باديس التربوي يجدر الحديث عنها وهي اهتمامه بالطلبة الذين يتعلمون عنده ، فرغبة منه في العناية بهم ومراقبة سيرهم أنشأ لجنة للطلبة تتولى التمويل والإشراف عليهم وحث المؤسسات التعليمية الوطنية في عموم الجزائر على انشاء لجان مماثلة (١) .

كما اهتم ابن باديس بتعليم المرأة الجزائرية ولكن على أساس من المثل العربية والقومية والأخلاقية ورفض أن تتعلم الفتاة الجزائرية تعليما أجنبيا محضا لأن ذلك في نظره يبعدها عن الإحساس الوطني الذي هو ضروري لخلق جيل يحفظ أصله ولا يتنكر لأمته، وفضل المرأة الأمية الخلقة المتدينة على المرأة المتعلمة التي تلد أبناء عاقين بحق الوطن وفي ذلك يقول : «الجزائرية بدينها ولغتها وقوميتها فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد لنا أولادا منا ولنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره ولا يتنكرون لأمتهم ولوتنكر لهم الناس أجمعون ... والطريق إلى هذا هو التعليم تعليم البنات تعليما يناسب خلقهن ودينهن وقوميتهن فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتهم - عليهن الرحمة - خير من العالمة التي تلد أبناء لا يعرفونها» (٢) .

(١) عمار الطالبي : ابن باديس ١١٦/١ .

(٢) الشهاب عدد نوفمبر ١٩٢٩ ص ١٤ .

ومن وسائل الترغيب لدفع البنات إلى التعليم العربى ^(١) أنه أعفاهن من دفع رسوم التعليم أو «واجب التعليم» ، كما نص على ذلك القانون الأساسى لجمعية التربية والتعليم الإسلامية فى قسنطينة ^(٢) .

وقد كان وضع المرأة المسلمة فى أوائل هذا القرن مختلفا فأبواب التعليم موصدة فى وجهها ومشاركتها فى التجمع لم تتعد دور ماكينة إنتاج الأولاد بالإضافة إلى بعض الأعمال الإنتاجية البدائية.

وفى الجزائر حاولت قلة قليلة من السيدات المثقفات بالفرنسية من أصل جزائرى أو فرنسى لفت الانتباه إلى «الحالة اليائسة للمرأة العربية فى الجزائر التى شوهتها النعاسة وخانتها الحياة» ولكن هذه المحاولة لم تتعد الكتابات الأدبية ولم تأخذ طريقها إلى المشاركة العملية فى إنقاذ المرأة الجزائرية ولكن تيارا مشجعا لتحرر المرأة ظهر فى الجزائر وفى المغرب العربى بصورة عامة نتيجة للتطور الفكرى الذى شهده العالم العربى فى ذلك الوقت بتأثير من أتاتورك فى تركيا والنهضة النسائية فى مصر ^(٣) .

وقد شارك ابن باديس فى النقاش الدائر فى هذه النهضة مشاركة فعالة وكان رأيه الذى خالف فيه دعاة تحرر المرأة «المتفرنسين» فى الشكل وليس فى الجوهر . فهو يعارض السفور كعلامة للتحرر ويرى أن التعليم والتعليم الوطنى والدينى على الخصوص هو المدخل الأول لتحرر المرأة وأن الحجاب لا يقف عائقا أمام تطورها وفى ذلك يقول : «إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب

(١) يخطئ البعض أو يخلط فى موقف الإسلام من تعليم المرأة وعملها عندما يرى أن الإسلام يرفضه أو على الأقل لا يحبه . والصحيح أن الإسلام يدعو إلى تعليم المرأة . أما عملها فيبيحه مع وضع بعض الشروط والآداب وتفضيل بعض الميادين على غيرها فيه .

(٢) الشهاب عدد مارس ١٩٣١ ص ١١٥ .

(٣) جمعية العلماء المسلمين ٢٣٢ .

الستر عن وجهها فإن حجاب الجهل هو الذى أخرها أما حجاب الستر فإنه ما ضرها فى زمان تقدمها فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانا عاليا فى العلم وهن متحجبات فليت شعرى ما الذى يدعوكن اليوم إلى الكلام فى كشف الوجوه قبل كل شىء (١) .

وفى الواقع كان ابن باديس حذرا من اتجاه الدعوة إلى تحرير المرأة التحرر الذى يتجاهل التراث الدينى وكان يخشى على المرأة المسلمة إذا ما انخرقت إلى التيار الأوربى أن تضيع وبضيع معها حبها لوطنها وامتها لذلك أصر على أن تكون الخطوة الأولى لتحرر المرأة وتطورها هو التعليم تعليم البنات تعليما يناسب خلقهن ودينهن وقوميتهن . فالجاهلة التى تلد أبناء للأمة يعرفونها خير من العالمة التى تلد أبناء لا يعرفونها (٢) .

فكان يخشى توجه المرأة المسلمة نحو الثقافة الأجنبية وحدها وعدم اهتمامها بالثقافة العربية مما يحقق الأهداف الاستعمارية لذلك فقد اهتم بتعليم الفتاة العربية تعليما وطنيا يقوم على الحشمة والفضيلة والعفة والصيانة وبين أن إقبال الفتاة الجزائرية على المدارس العربية الحرة يدل على أنها متأهبة إلى نفوذ تلك الأسما من العرف الذى يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة ومن كل ما يؤهلها لأن تكون فتاة جديرة بالحياة وأنها ستمت تلك الحالة التى ظلت رازحة تحت أعيانها مدى غير قليل (٣) .

وكان يرى أن تعليم المرأة يؤدى إلى الانسجام العائلى وأن الفتاة المثقفة يمكن أن تخدم وطنها .

(٢) الشهاب نوفمبر ١٩٢٩ ص ٩ .

(١) السابق .

(٢) تركى رايح: الشيخ عبد الحميد بن باديس مصدر سابق .

ولكن ورغم دعوة ابن باديس إلى الحجاب وأن التعليم لا يعارضه ذلك الحجاب إلا
أن السفور قد عم بين الفتيات آنذاك حتى كان شعارهن:

علموني هذبونى كى تروا فى العجاب
ويحكم لا تحبسونى خلف أستار الحجاب

هذا عن تعليم المرأة أما عن المواد العلمية التى كان يدرسها ابن باديس فقد كانت
فى مجملها مواد دينية لغوية مع بعض العلوم العقلية وهى عينها المواد التى كانت
تدرس فى الجامع الأزهر والزيتونة والقرويين . فعندما بدأ ابن باديس إلقاء محاضراته فى
الجامع الكبير فى قسنطينة كان يدرس كتاب الشفاء للقاضى عياض ولما انتقل إلى
الجامع الأخضر أخذ يدرس موطأ الإمام مالك وأقرب المسالك والمفتاح والتتقيح والسلم
والأجرومية وقطر الندى ولامية الأفعال وديوان الحماسة وديوان المتنبى وأمالى القالى
ومقدمة ابن خلدون وغيرها .

أما الطريقة المتبعة فى المدرسة الابتدائية فكانت تشمل حفظ آيات القرآن الكريم
والتاريخ الإسلامى ومبادئ الحساب بالإضافة إلى الكتب المدرسية التى كانت مقررة فى
مصر فى ذلك الوقت .

وبالإضافة إلى ذلك وإلى التعليم العام المدرسى كان ابن باديس يثابر على تفسير
القرآن فى حلقات عامة وقد انتهى درس التفسير عام ١٩٣٨ .

منهجة التعليمي

ركز ابن باديس فى ميدان التعليم على إصلاح المنهج ففى نظره لن يؤتى التعليم
ثمرته إلا إذا قام على منهج تربوى صحيح . يقول فى الشهاب لن يصلح المسلمون حتى
يصلح علماءهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ولن يصلح التعليم إلا إذا صلح
المنهج الذى يقوم عليه . فالتعليم هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى

مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره فإذا أردنا إن نصلح العلماء فنصلح التعليم (١).

أما المنهج الذى يفضل فى إصلاح التعليم فهو الرجوع إلى الطريقة النبوية وطريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين فى المنهج الدارسى وفى طريقة التدريس يقول فى ذلك: «ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوى فى شكله وموضوعه فى مادته وصورته فيما كان يعلم - ﷺ - وفى صورة تعليمه فقد صح عنه ﷺ فيما رواه مسلم أنه قال: «إنما بعثت معلماً».

وكان ابن باديس يرجو من دعوته بالرجوع من منهج التعليم إلى منهج النبى وأصحابه والتابعين أن يقيم المنهج المبني على دراسة الأصول العامة للثقافة الإسلامية والقوانين المطردة التى تتدرج تحتها الفروع، والجزئيات الفقهية ويضرب مثلاً فى المناهج الصالحة قديماً بمنهج الإمام مالك فى كتاب الموطأ الذى بنى أمره فيه فى بيان الدين على الآيات القرآنية وما صح عنده من قول النبى وفعله وما كان من عمل أصحابه الذى يؤخذ منه وكذلك الإمام الشافعى فإنك تجدته قد بنى فقهه على الكتاب وما ثبت عنده من السنة .

وتأثر ابن باديس أيضاً فى منهجه التربوى بأبى بكر بن العربى الأندلسى ٥٤٣هـ صاحب كتاب (المواصم من القواصم) ومن فرط اهتمامه بهذا الكتاب حقق مخطوطه (٢) وقدم له وطبعه فى جزأين عام ١٩٢٨ وكذلك تأثر بكتاب (جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله) لأبى عمر يوسف بن عبد البر القرطبى ٤٩٣هـ، وقد انتقد هذان الكتابان مناهج وطرق التدريس التى كانت سائدة فى عصرهما فى الأندلس لما كان يطغى على هذه المناهج من جمود وتقليد وقتل للفكر

(١) الشهاب عدد أكتوبر ١٩٣٤ ص ٤٧٨.

(٢) المواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ وحقق غير مرة .

والابتكار ، أى أنهما رفضا الاقتصار فى التعليم على دراسة الفروع الفقهية دون الرجوع إلى أصولها لمعرفة أسبابها ودون الاعتماد على الاستدلال والتعليل والقياس .

وقد اعتبر ابن باديس أن الاهتمام بالفروع دون العودة إلى الأصول ومعرفة القوانين العامة التى تندرج تحتها إنما هو بعد عن القرآن والسنة النبوية وهجر لهما وانتقد هذا المنهج بقوله : «واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة وراء سور من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليه^(١) .

وينتقد ابن باديس التعليم الذى كان آنذاك فى تونس فيقول : قد حصلنا على شهادة العالمية من الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله . فالعلماء إلا قليل منهم أجنب أو كالأجنب من الكتاب والسنة إن من حيث العلم بهما أو التفقة فيهما ونحن عقدنا العزم على إصلاح التعليم الدينى فى دروسنا حسب ما تبلغ إليه طاقتنا .

ودعوة ابن باديس هذه الأيام إلى الاهتمام بالأصول وعدم الاكتفاء بالفروع كنا نتظر معها من ابن باديس أن يدعو إلى الاستفادة من المناهج التربوية الحديثة إلى جانب الدعوة إلى منهج السلف الصالح وأن يعطى بعض الاهتمام للعلوم المدنية والعلمية من طب وهندسة وكيمياء وغير ذلك مما كان للمسلمين يد طولى فيها ولكنهم همجروها فى عصور ضعفهم وتأخرهم وتلقفها الغرب منهم فنماها وطورها وغدت على يديه مدنية وحضارة وتقدما ورقيا وفتح بها ميادين وآفاقا ما أخرجنا إلى أن نردها ونسلك طريقها وما كان أحرى ابن باديس أن يدعو إليها ويجعلها من عناصر منهجه التربوى ويخيط فلسفته التعليمية .

وعلى أية حال فقد كان نشاط ابن باديس التربوى ذا اتصال وثيق بنشاطه العلمى والإصلاحى كما أنه ذو صلة بنشاطه السياسى فأفكاره كلها تتغذى من عقيدته ومبدئه

(١) الشهاب فبراير ١٤٣٢ ص ٧٠ .

ليس بينها انفصال واضح بل هي شرايين وأوردة تعمل لهدف واحد هو ترقية المجتمع في حياته وتفكيره.

والملاحظ على العملية التربوية في فلسفة ابن باديس أنها كانت بعثا حيويا نشيطا للغة العربية التي صارت لا تظهر إلا على استحياء.

ولم يكن ابن باديس رجل تربية بالنظريات يستنبطها ولا بالمناهج يعمل جهده لوضعها بقدر ما كان رجل تربية باجتهاده وعمله من أجل تثقيف أبناء الأمة بوسائل تجعلنا نحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا فكان يسعى كما يقول لخدمة العلم وأهله وتربية النشء وتثقيفه.

وقد عمل على رفع الكلفة بينه وبين تلاميذه كى يعرفهم ويعرفوه فتكون النتيجة المرجوة يقول : «إن تربيتنا العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة وإجلالها على ما هي عليه صيرتنا لا نستطيع شيئا من المواربة والتلبيس.. نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ، وربما عن غير قصد ، تاريخنا ومقوماتنا ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا .. إن لهذه الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها .

وكنا ننتظر من ابن باديس أن يضم إلى ذلك الدعوة إلى ترجمة الكتب والعلوم الأوربية وتقديمها لأبناء الأمة العربية يستفيدون منها كما استفاد الغرب منهم من قبل . فنهضة أوربا الحاضرة قامت في الكثير من جوانبها على ترجمتها لعلوم المسلمين فلا بأس أن يقوم المسلمون اليوم بترجمة العلوم والكتب التي تفوق فيها الغرب حتى تقوم لنا نهضة كما قامت لهم.

إن ابن باديس متفتح الذهن يدعو إلى ضرورة الاقتباس لما يتفق والشخصية العربية ويرى ضرورة تعلم اللغة الوطنية ، وبهذا تكون العملية التربوية في نظره هي تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم وتثقيف

أفكارهم باللسانين العربى والفرنسى وتعليمهم الصنائع.

أما المعلم فى ، نظره ، فهو الذى يجب أن يفهمه المتعلمون ويفهمهم هو فى نفسه لأنه هو الذى انتصب ليث فيهم أفكارا وأخلاقا وأدبا وعن نفسه يقول : أنا أظن نفسى مفهوماً عند من يتصلون بى لأننى ما فتئت أعلن عن فكرتى التى أعيش لها وغايتى التى أسعى إليها .

وعندما رأى ابن باديس أن التعليم البعيد عن التطبيق هو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل نصب نفسه للتدريس ووقف وقته عليه ، يقول أحدهم : لا أعرف أحدا من العلماء قدر له أن يخصص حياته للتدريس على النحو الذى فعل الشيخ ابن باديس ثم هو يعلم أبناء الجزائر وشيوخها احتسابا لوجه الله^(١) .

ومما يتصل بفلسفة ابن باديس التربوية نشاطه الصحفى إذ أدرك أن حركته التربوية الإصلاحية لن يكتب لها النجاح إلا إذا اتصلت بالشعب وأن الطريق للخروج بالإصلاحية من المحدودية إلى العمومية هى الصحافة لذلك أصدر أول جريدة له باسم المنتقد عام ١٩٢٥ وكان شعارها «الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شىء» وكان اسمها يدل على أنها ثورة على التوجيه السائد لدى الطرق الصوفية «اعتقد ولا تنتقد» وكانت لهجة المنتقد عنيفة جدا ضد تصرفات الإدارة الفرنسية كما أنها شنت هجمات شديدة على الطرق الصوفية مما دفع الإدارة إلى إيقافها بعد صدور ثمانية عشر عددا منها وأنه لمن غريب المفارقات أن مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها الأفغانى ومحمد عبده توقفت بعد صدور ثمانية عشر عددا منها أيضا^(٢) .

(١) انظر الدكتور أحمد الخطيب : جمعية العلماء الجزائريين وأثرها الإصلاحى فى الجزائر من ١٨٢ ،

عمر بن فنية : عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية ٢٨ .

(٢) مارس ١٨٨٣ حتى أكتوبر ١٨٨٤ .

وبعد توقف المنتقد أصدر ابن باديس فى نفس العام ١٩٢٥ جريدة الشهاب التى تحولت عام ١٩٢٩ إلى مجلة شهرية وكان شعار الجريدة «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا»^(١) وقد استطاع أن يكيف نفسه أحيانا مع الظروف السياسية وفى نفس الوقت كان صلبا فى تأدية رسالته الإصلاحية والدفاع عن حقوق الشعب. واستمرت الشهاب فى الصدور حتى عام ١٩٣٩ عندما أوقفها ابن باديس نفسه عشية إعلان الحرب العالمية الثانية لأنه رفض لها أن تكون أداة فى يد الإدارة الفرنسية التى وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب.

كانت الشهاب والمنتقد جريدتين خاصيتين بابن باديس وعندما أسست جمعية العلماء وأصبح ابن باديس رئيسا لها احتفظ بالشهاب لنفسه تنشر أفكاره الخاصة بالإضافة إلى ما تنشره للجمعية ولم يحاول جعلها جريدة رسمية لها وكان هو بنفسه يحرر معظم أبوابها ويكتب مقالاتها الافتتاحية.

وعندما أصدرت جمعية العلماء على التوالى جرائدها الأربع السنة الصراط الشريعة البصائر كان ابن باديس يكتب مقالاتها الدينية كما كان يتولى الرد فيها على كتابات القراء وذلك حتى تاريخ توقف البصائر فى سلسلتها الأولى ١٩٣٩.

وقد حققت صحف هذه الجمعية انتشارا واسعا ونجاحا كبيرا فى نشر دعوة ابن باديس بخاصة وجمعية العلماء بعامة وكانت أفكار ابن باديس كقبس منطلق وكان طلبة بعض الزوايا يقرأون الشهاب سرا وبشغف شديد رغم قدم الأعداد من الصحيفة ويتناقشون فيها طويلا ويبدون إعجابهم بالرجل الذى جعل من تلميذه صديقا له ومن شعب الجزائر ومشكلاته مركز اهتمامه.

وتجاوزت صحف ابن باديس حدود الوطن يقول محمد المبارك (من سوريا): .

(١) جمعية العلماء المسلمين ص ١٤٢.

كانت تصلنا جريدة البصائر ثم مجلة الشهاب ونقرأها بلهفة شديدة متطلعين إلى أخبار قطر عربى مسلم كان المعروف والمشتهر عنه أن اللغة العربية أصبحت مجهولة فيه فكانت منشورات جمعية العلماء حدثا هاما يلفت النظر ويثير الدهشة، وكان الأعظم من ذلك أن هذه المنشورات كانت تدل على وعى عميق شامل للمشكلة إذ كانت نقطة الانطلاق فى عمل جمعية العلماء ثورة فكرية سلفية استهدفت تهيئة رأى العام وتغيير فكره^(١).

ولم يكن ابن باديس أول من دعا إلى الإصلاح فى الجزائر ولا أول من عمل على إنشاء المدارس ودور العلم بل كانت هناك أفكار إصلاحية وآراء تقدمية قبله تمثلها شخصيات معينة معروفة أو غير معروفة فعندما احتل الاستعمار الجزائر واجهته مقاومة سياسية وفكرية، فالأفكار الإصلاحية موجودة قبل ابن باديس لكنها عنده تبلورت أكثر وكان التجاوب معها أكبر كما كانت أوسع وأشمل حيث تجاوزت النظرية إلى التطبيق.

نرى الحركة الإصلاحية عند ابن باديس شملت ألوانا مختلفة : الإصلاح فى الدين والإصلاح فى الحياة والمجتمع والتقاليد والإصلاح فى التربية والتعليم ، ثم إن الوسائل عند ابن باديس كانت أكثر اتصالا كالصحافة والخطابة والدروس والأنصار الذين يزداد عددهم كل يوم والأحزاب والحركات التى أخذت تطل بأفكارها وآرائها مما سرى معه إحساس فى المجتمع بأن هناك نشاطا وغليلانا أو شيئا يريد التغيير.

ولا ننكر فى هذا المجال زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة ١٩٠٣ لكن من المؤكد أن هذه الزيارة لم تكن فى مستوى القيمة التى حققتها أفكاره والتى انتشرت فى الجزائر عن طريق الصحافة خاصة بواسطة أحد أنصاره «رشيد رضا» الذى كان ينشر أفكار الشيخ فى «المنار» ومنها كان يقتبس ابن باديس نبذا فى «الشهاب».

وكما كانت الأفكار الإصلاحية موجودة قبل ابن باديس كذلك كانت مراكز

(١) - عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح ص ٣٢.

التعليم قائمة لكنها كانت غير واضحة وغير كافية أو قل كانت محدودة التأثير والانتشار لأن الاستعمار الفرنسى عندما احتل البلاد نهب الأوقاف التى كانت مصدرا للتعليم فأغلق بذلك المصدر الرئيسى لتشجيع التعليم وانحضرت اللغة العربية فى الزوايا تقريبا واقتصرت على تعليم القرآن .

ومعروف أن ابن باديس اهتم بإصدار صحف مكتوبه بالفرنسية لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى حمل الأفكار للذين لا يجيدون العربية سواء من الجزائريين أو من غير الجزائريين .

وقد مضى ابن باديس فى القيام بمهمته العلمية والإصلاحية بمجهوده الفردى ونشاطه ضمن جمعية العلماء المسلمين يناهض الاستعمار ويحارب الضلال حتى أصبح هدفا لسهامهم ومؤامراتهم فرادى ومجتمعين فكان ذلك الحادث لمحاولة اغتياله ذات ليلة بعد أن فرغ من عمله وهو فى الطريق إلى منزله .

الإصلاح الدينى

جوهر الدعوة الإصلاحية عند ابن باديس وأنصاره يقوم على العودة بالدين إلى صفائه الأول فى عهد السلف الصالح ومحاربة الخرافات والبدع التى شوهته الأمر الذى جعل ابن باديس ينشط لتأسيس جمعية العلماء ويكتف نشاطها فى هذا المجال وقد حدد لذلك أهدافا من أهمها : تغيير المفهوم الدينى السائد والعودة بالدين إلى صفائه السلفى ومحاربة الطرق الصوفية التى شوهت معالم هذا الدين ^(١) بما أدخلت عليه من خرافات

(١) انتشرت الطرق الصوفية فى بلاد المغرب وبخاصة فى الجزائر بصورة كبيرة فهناك العشرات من الطرق وقد انحرف الكثير منها عن جادة الدين وجوهره بما استحدثته من بدع وخرافات . الأمر الذى دعا ابن باديس إلى أن يحاربها ويكتف جهوده لمقاومتها علما بأن أسرته كانت تنتمى إلى واحدة منها كما بينا سابقا . فمحاربة ابن باديس ومقاومته ليست محاربة للتصوف نفسه وإنما لما فيه من البدع والخرافات وإلا فالتصوف فى إطاره الصحيح السنى لا اعتراض عليه .

وإدع والدعوة إلى استقلال الشؤون الدينية الإسلامية عن الإدارة الفرنسية وفيما يلي عرض لهذه النشاطات .

١- تغيير المفهوم الدينى الذى كان سائرا وتبسيط الأحكام الفقهية وتسهيلها وتخليص الدين من الأوهام والخرافات والمعتقدات الفاسدة وإظهاره بسهولة ويسره فقد كان ابن باديس يرى أن التعقيد الذى أصاب المذاهب الفقهية هو أحد الأسباب التى بعثت الناس إلى التحلل منها والانخراط فى الطرق الصوفية التى أباحت لهم التحلل من التكاليف^(١) ، وأن السبيل لتغيير المفهوم الدينى هو العودة بالإسلام إلى منابعه السلفية الصافية واعتماد العقل وتبيان الأسباب والمسببات فى التفسير.

وقد وضع ابن باديس أصول الدعوة الدينية فبين أن الإسلام هو دين الله الذى يدعو إلى الأخوة الإسلامية والأخوة الإنسانية ويسوى فى الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان فهو يفرض العدل بين الناس ويدعو إلى الإحسان ويحرم الظلم ويمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة العلمية والتفكير وينشر دعوته بالحجة والاقناع ويترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه يطبقونه كما يشاءون^(٢) . والإسلام يشرك الفقراء مع الأغنياء فى الأموال ويدعو إلى رحمة الضعيف ، ويحرم الاستعباد والجبروت ويجعل الحكم شورى وينكر البدع ويقر المصلحة التى تقتضيها حاجة الناس فى أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شئونهم وتقدم عمرانهم^(٣) .

والتوحيد هو أساس الدين فكل شرك فى الاعتقاد أو فى الفعل هو باطل.

٢- محاربة الطرق الصوفية : كان ابن باديس يرى أن الأوضاع الطرقية بدعة لم

(١) حبيب غانم - ابن باديس ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) البصائر : السنة الثانية العدد ٧١ .

(٣) السابق .

يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ وتجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور على أن بعض هذه الطرق كانت تلتزم بالمنهج الديني الصحيح فنهاك زوايا أقامها أصحابها من أجل العلم والعبادة وكانت محجة وموثلا لطلاب العلم والمعرفة. (١).

حارب ابن باديس من خلال جمعية العلماء المسلمين الطرق الصوفية غير أن احتفالات الفرنسيين بالذكرى المئوية للاحتلال Centenaire وما صاحبها من مهانات دينية ووطنية جعلت ابن باديس وأصحاب الطرق يتقاربون عند نقطة مشتركة لمواجهة الاستفزازات الاستعمارية الصارخة.

٣- الدعوة إلى استقلال الشؤون العربية عن الإدارة الفرنسية: طالب الشيخ ابن باديس بضرورة فصل الدين عن الدولة وأن تسلم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة وأن يؤسس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين .

وأن ينظم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال القضاء (٢).

وعبارة «فصل الدين عن الدولة» يبدو أنها وردت لأول مرة في مطالب المؤتمر الذي كان قد دعا إلى عقده ابن باديس والذي ضم بالإضافة إلى جمعية العلماء عددا من الأحزاب السياسية (٣) ورفع مطالبه إلى حكومة الجبهة الشعبية في باريس عام ١٩٣٦.

(١) المدني : حياة كفاح ص ٩٣، وانظر جمعية العلماء المسلمين ١٧٩.

(٢) البصائر : السنة الأولى العدد ٢٤.

(٣) انظر الحركة الوطنية الجزائرية ١٧١/٣ مرجع سابق.

وقد بذلت جمعية العلماء المسلمين جهودا كثيرة لتحقيق فصل الدين عن الدولة حيث أدركت أنه لا يمكن الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية للجزائر طالما أن مساجد المسلمين وأوقافهم تستغلها الإدارة الاستعمارية وتنفقها في غير وجهها وكانت فرنسا قد طبقت هذا المبدأ على نفسها ١٩٠٥ على الرغم من معارضة البابا واحتجاجه لما فيه من الحد من هيمنة الكنيسة وقد رد يومها مقرر مشروع الفصل على معارضيه بقوله: «الحكومة الفرنسية ليست ضد الدين ولكنها لا دينية»^(١).

ويبدو أن هذه اللادينية أو العلمانية الفرنسية عجزت عن عبور البحر المتوسط إلى الجزائر فقد بقيت قضية فصل الإسلام عن حكومة الجزائر كما قال الإبراهيمي منظورة بالعين الاستعمارية وموزونة بالميزان الصليبي ومفهومة بالعقل المتحجر^(٢).

وهكذا يلاحظ أن فكر ابن باديس الإصلاحى تناول معظم أوجه الحياة فأصبح له رأي في كل قضية ومنهجه الواضح في الإصلاح والتربية لم يتراجع تحت ضغط المضايقات الاستعمارية التي يقول عنها إن مثل هذه المضايقة لا تزيد ما ندعو إليه من حق وعدل وخير إلا انتشارا ولا تزيد من يزرعون الباطل والجور والشر والإساءة من الوشاة إلا اندحارا وانكسارا.

وسار في حركته الإصلاحية في خطين متوازنين : الدعوة الإصلاحية من جهة تواكبها من الجهة المقابلة حركة تعليمية دائمة ..

(١) عيون البصائر : ص ١٧١.

(٢) السابق.